
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة
في القرن التاسع عشر

الفرقان الحسين
كليـــة الآداب، الرباط

تقديم :

تتفق مختلف الدراسات التاريخية التي تناولت الحركة الفكرية العربية بصفة عامة، والمغربية بصفة خاصة، حول انحصار الفكر عن التجديد والتطور منذ القرن الرابع عشر. لقد أضحى هذا الفكر يدور حول المرتكزات نفسها المبنية على الأصول ذاتها، واجترار ما خلفه السلف تاركا المجال أمام المعتقدات الميتافيزيقية التي تعزز موقعها مع انتشار الزوايا وسيادة الفكر الطرقي[1].

عند رصدنا للمؤلفات المغربية التي تطرقت لموضوع الأوبـــئة في مغرب القرن التاسع عشر سواء في الإشارات العابرة، ضمن الحوليات التاريخية والتراجم، أوضمن مؤلفات وتقاييد مخصصة للوباء والطاعون –وهي المؤلفات التي اصطلح على تسميتها بأدبيات الطاعون وتصنف غالبا ضمن موضوعات الطب في فهارس الخزانات ودور المخطوطات– نلاحظ المساحة الواسعة التي يشغلها الخطاب الفقهي عند التطرق لأحد الجوانب المرتبطة بالأوبئة. فما هي المرجعية الفكرية والدينية العامة التي أطرت هذا الـــخطاب ؟

---

[1] محمد زنيبر، "الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر"، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد 8، سنة 1982، ص. 319- 324. - محمد الأمين البزاز، تاريخ المجاعات والأوبئة بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1992، ص. 394؛ عبد المجيد الصغير، "الطاعون الأسود بين الواقع والتأويل في المغرب العربي"، دراسات فلسفية أعمال مهداة إلى الأستاذ الطاهر واعزيز. منشورات كلية الآداب، الرباط 1993، ص. 93-103.

المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، ص. 307-317.

1- المرجعيات الفكرية العامة لمفهوم الطاعون/الوباء :

ترسخ عبر الأزمنة التاريخية، وفي مختلف الحضارات الإنسانية القديمة، الاعتقاد بمفهوم العقاب السماوي بواسطة الوباء، إذ كان الوباء يعتبر عقابا للمجتمعات والأفراد على خطاياهم وذنوبهم. وهناك أمثلة عديدة من العالم القديم، اليوناني والبابلي، ثم المسيحي (مثال ذلك من الفترة الوسيطية مع طبيب فرنسي فسر ظهور الطاعون الأسود لسنة 1348م بأنه عقاب إلهي ضرب أهل جنوة بسبب معاملتهم السيئة للعرب[2]).

أما في الموروث العربي الإسلامي، فإن مفهوم الوباء عند الإخباريين ارتبط أساسا بما ترسخ في الذهنية الجماعية من الأحاديث النبوية التي تفيد بأن الطاعون عقاب سلطه الله على بني إسرائيل بسبب عصيانهم وفسادهم : « إنّه وَخْزٌ وبَقِيّةُ عَذابٍ عُذّب به قَومٌ قَبْلكُمْ »[3]، كما أنه رحمة على المسلمين وعذاب على الكفار يُعَجّل لهم قبل الآخرة[4]، وهوالتأويل الذي اتُّفق عليه لحديث : « أتاني جِبْريل عليه السلام بالحُمّى والطاعون فأمْسكتُ الحمّى بالمدينة وأرسَلتُ الطاعون إلى الشّام، فالطاعونُ شهَادة لأُمّتي ورَحْمة لَهُم ورِجْسٌ على الكَافِرين »[5]. فالمسلم الذي يموت في الطاعون شهيد، « مَن مَاتَ في الطّاعُونِ فَهُوشَهِيدٌ »[6] ويوضع في الدرجة نفسها من مات مجاهدا في سبيل الله. هذا التصور يفسر عدم إغفال الإخباريين المغاربة في الغالب عن ذكر الطاعون في حالة وفاة شخصية بارزة به لأن الوفاة بالطاعون ترفع هذه الشخصية إلى مرتبة الشهداء[7].

ومن جهة أخرى تَبرز حادثة تراجع عمر بن الخطاب عن دخول بلاد الشام سنة 18هـ/638م في مقدمة الروايات المرتبطة بالطاعون، فقد

2- J-N Biraben, les hommes et la peste en France et dans les pays méditerranéens, Mouton, Paris, 1976. Volume 1, p 8.

3 مسند أحمد بن حنبل، ج 1، ص. 362.

4 ابن حجر، بذل... م.س. ، ص. 181- 182.

5 مسند أحمد بن حنبل. ج. 5، ص. 81.

6 صحيح مسلم، ج. 3، ص. 1521.

7 -Dr H. P.J.Renaud , « la peste de 1818 au Maroc », in Hespéris, Volume 3, 1er trimestre, 1923, p.15.

كان بالشام آنذاك الطاعون المسمى من قبل الإخباريين العرب بطاعون عمواس[8] الذي أودى بحياة حوالي25 000 من الجنود المسلمين مما أخر حملة الجيش الإسلامي على البيزنطيين[9].

وهي الحادثة التي وردت في حديث مالك بن أنس وشكلت حجر الزاوية في مسألة الفرار من الطاعون والوباء : "عن عبد الله بن عباس (ض) أنَّ عُمَرَ بْنَ الخطاب (ض) خَرَجَ إلى الشَّام حَتَّى إذَا كَانَ بسَرْغَ لَقِيَّهُ أُمَراءُ الأجْنادِ، أبوعُبَيْدَة الجرَّاح وأصْحابُه، فَأخْبَروهُ أنَّ الوَباءَ قَدْ وَقَعَ بأرْضِ الشَّامِ. فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعضُهُم قَدْ خَرَجنا لأَمْرٍ ولاَ نَرَى أنْ نرْجعَ عَنْه وقَالَ بَعْضُهُمْ مَعَكَ بَقِيةٌ مِن النَّاس وأصْحَابُ رَسُولِ الله (صلعم) فَلاَ نَرَى أنْ تُقْدِمَهُمْ عَلى هَذا الوَبَاءِ. فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَال ادْعُ لي الأنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبيلَ المُهَاجِرينَ واخْتَلَفُوا كَاخْتِلافِهِم. فَقَال ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ ادْعُ لي مَنْ كَانَ هُنَا مِنْ مَشْيَخَة قُرَيْشٍ مِنْ مُهاجِرةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنهُمْ عَلَيْهِ رَجُلانِ فَقَالُوا نَرَى أنْ تَرْجِعَ بالنَّاس ولاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذا الوَباءِ. فَنَادَى عُمَرُ في النَّاس : إنّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأصْبحُوا عَلَيْه. فَقَالَ أبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ : أفِرَارًا مِنْ قَدَرِ الله ؟ فَقَالَ عُمر : لوغَيْرُكَ قَالَها يَا أبَا عُبَيْدَة نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إلَى قَدَرِ الله، أَرَأَيْتَ لوكَانَ لَكَ إبلٌ هَبَطْتَ بها وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ أحدهُمَا خَصْبَةٌ والأُخْرَى جَدْبَةٌ أَلَيْسَ إنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله وَإنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بقَدَرِ الله. قال : فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمن بْنَ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا في بَعْضِ حَوَائِجِهِ فَقَالَ إنَّ عِنْدي في هَذا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ الله (صلعم) يَقُولُ : «إذَا سَمِعْتُمْ بهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدِمُوا عَلَيْهِ وإذَا وَقَعَ بِأرْضٍ وَأنْتُمْ بها فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ» قَالَ : فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ"[10]

[8] عمواس هي قرية بفلسطين بين بيت المقدس والرملة كانت بداية ظهور هذا الطاعون بها.

[9] J-N Biraben, « La peste noire en terre de l'Islam » in l'Histoire, n°11, avril, 1979, p. 30.

[10] موطأ مالك، ج. 2، ص. 864- 895.

انطلاقا من هذا التصور فالطاعون لا يخضع لقياس الأمراض الأخرى، لذلك عجز الأطباء عن فهمه : "فللأطباء إذا لم يتعرضوا لكونه من طعن الجن معذرة لأن ذلك أمر لا يدرك بالعقل ولا بالتجربة وإنما يُتلقّى من خبر الشارع"[11].

إن استبعاد أي دور للطب في مواجهة الطاعون طغى على معظم ما تداوله الإخباريون والفقهاء في القرن 19م. هذا التأويل مستمد مِمَّا خلفه ابن حجر العسقلاني الذي خصص كتابا لموضوع الطاعون ؛ ويُعد هذا الكتاب بمثابة المصدر لمجمل الأحكام الفقهية حول القضايا المرتبطة بالوباء والطاعون منذ صدر الإسلام.

لقد تبلورت هذه المرجعية العامة مع الكتابات الغزيرة التي تراكمت طيلة قرون من الزمن وشكلت ما اصطلح عليه بالطب النبوي، فما هوصداها في تعريفات الوباء والطاعون في مؤلفات مغرب القرن التاسع عشر ؟

2 - تعريفات الطاعون والوباء :

إن الغموض المرتبط بتعريف الطاعون وعمومية المعلومات التي نصادفها في المصادر المغربية والعربية عامة يتحدد على مستوى المصطلح ؛ فنجد لفظ الوباء يرد باستمرار عند ذكر أي مرض فتاك سواء أكان طاعونا أم حمى وبائية أم أي مرض وبائي يتميز بالانتشار الواسع وحصد أعداد كبيرة من الضحايا. هذا الغموض كان له ما يطابقه في المصادر الأوروبية سواء منها الإغريقية التي استعملت مصطلح لويـــموس Loimos أولويـــميا Loimia[12]، أواللاتينية التي استعملت مصطلح pestis للدلالة على كل الأمراض البشرية الكبرى، خاصة منها الأوبئة الخطيرة، وأصبح هذا اللفظ انطلاقا من الطاعون الأسود لمنتصف القرن 14م دالا فقط على الطاعون الذي يحصد أعدادا كبيرة من

[11] أحمد ابن حجر العسقلانـي، بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض، 1411 هـ/ 1991م. ص. 104.

[12] H.P.J. Renaud, les maladies pestilentielles dans l'orthodoxie islamique, Bulletin de l'institut d'Hygiène du Maroc, n°III, juillet- sept. 1934, p. 5.

الضحايا، كما سمي أيضا بالعدوى والوفاة. ولكن بعض المؤلفين استمروا في استعمال المعنى القديم للمصطلح لفترة ما بعد الطاعون الأسود.[13]

وحتى نتحكم في مختلف التشعبات التي يطرحها تتبع تعريفات الوباء التي أوردها إخباريوالقرن التاسع عشر بالمغرب، كان من اللازم القيام بتصنيف منهجي يسمح بتمييز ولونسبي بين ما هوفقهي وما هوطبي. خصوصا وأن هذه التعريفات وردت في غالب الأحيان بصيغة سجالية يستنبط منها أحيانا الرغبة في ترجيح كفة التفسيرات الفقهية على التعليلات الطبية.

1-2 : التعريفات الفقهية

إن ما يميز جل هذه التعريفات هووحدتها المصدرية، فهي لا تخرج في الغالب عما كتبه كبار حفاظ وأئمة الفقه الإسلامي من أمثال ابن حجر العسقلاني صاحب كتاب : بذل الماعون في فضل الطاعون، وجلال الدين السيوطي الذي اختصر هذا الكتاب في مؤلف سماه : ما رواه الماعون في أخبار الطاعون، ومحمد الحطاب الرعيني[14] بالمغرب.

وأول ما تتناوله التعريفات الفقهية هومسألة التمييز بين الوباء والطاعون إن على المستوى اللغوي أوالاصطلاحي، انطلاقا من كون الطاعون في التصور الديني الجماعي هوشهادة ورحمة للمسلمين وعقاب إلهي سلطه الله على الكفار. فعندما يتحدث العربي المشرفي مثلا عن المعنى اللغوي للوباء ينطلق من الحديث النبوي : " الطاعون وخز أعدائكم من الجن"، ثم يسرد عددا من الأحاديث النبوية والأحكام الفقهية ليخلص إلى أن الطاعون أخَصّ من الوباء، ثـم يتبنى حكم ابن حجر العسقلاني بعد ذلك : "الوباء ينشأ عنه كثرة الموت ولما كان الطاعون كذلك أُطلق عليه اسمه، فالوباء هوالمرض العام"[15] ويُعضده برأي القاضي عياض : "... والوباء هوعموم الأمراض فَسُمِيت طاعونا لشبهها بالهلاك وإلا فَكُلّ طاعون وباء وليس كل وباء طاعون"،

[13] - Dictionnaire des sciences historiques , p. 505-509

[14] من علماء المغرب في القرن العاشر الهجري، توفي حوالي 954 هـ/ 1547م. من مؤلفاته المشهورة في موضوع الطاعون عمدة الراوين في بيان أحكام الطواعين، توجد منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع مخطوط تحت رقم 2855 د.

[15] – العربي المشرفي(ت. 1895م)، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، خ. ح. 2054، ورقة 24 ب. هذا المخطوط قيد الدراسة والتحقيق لنيل دكتوراه في التاريخ تحت إشراف الدكتور محمد الأمين البزاز.

والقاسم المشترك بين الوباء والطاعون يتجلى في العدد الكبير من الضحايا كما يتضح من كلام المشرفي : "...على أن الوباء أعم من الطاعون وأن كلا منهما يُطلق على الآخر بجامع كثرة الموت فيهما"[16].

2-2 : التعريفات الطبية :

لئن كان مؤلفو القرن التاسع عشر في محاولتهم إعطاء تعريفات طبية للوباء والطاعون قد نهلوا من الموروث الطبي الإسلامي الذي خلفه الرواد أمثال ابن سينا والأنطاكي والرازي وابن رشد، فإن هذه التعريفات قد اكتست دورا فعالا بالنسبة للدارسين والباحثين في هذا الميدان ؛ فبناء على هذه التعريفات وعلى الأعراض التي وردت سواء في الكتابات الإخبارية أوالتقاييد الفقهية أمكن رفع نِسب هامة من اللبس وتحديد طبيعة عدد من الأمراض والأوبئة.

ويقدم لنا محمد بن يحيى السوسي نـــموذجا فريدا في هذا الصدد، فهويعرف الطاعون على أنه "ورم حار قتال يخرج في المراق والمغابن غالبا، وشرّه ما في الإبط الشمالي خصوصا عند هيجان الدم في أيام الربيع، والأسْود منه أشد، ويكون معه الحمى والقيء"[17]. وهولا يغفل عن ذكر التعريفات الفقهية بل يحاول التوفيق بينها وبين ما هوطبي قائلا : "وفي الحديث الكريم : إنه وخز الجن، إنما تَقَوّى تَصرُّفه عند فساد الهواء لاسيما في الأماكن الموحشة كالأودية والقبور ومواضع القتل ومحل الروائح الكريهة والأزبال والنجاسات والقرى الضيقة مساكنها بكثرة الناس"[18].

في المقابل يقدم العربي المشرفي تعريفا دقيقا عندما يصف طاعون 1798 كالتالـــي : "... وهـو (الطاعون) خروج شيء في مغابن الإنسان كإبطيه يشبه الجوزة، يسوَدّ ما حولها أويَـحمَرّ مثلا (...) يقال له وباء الحبة يـمرض الإنسان به أياما عديدة وربـما يعيش."[19] وتتجلى قيمةُ دقةِ هذا الوصف في كونه ساعد على تـــحديد نوع الطاعون، هل هودملي أورئوي.

---

16 العربي المشرفي، أقوال، ورقة 39ب.
17 محمد بن يحيى الشبي السوسي (كان حيا سنة 1277هـ) تأليف في الطب، خ. ع. ر.780د. ص.18 أ.
18 نفسه.
19 العربي المشرفي، أقوال المطاعين، ص.9 أ.

ولا تختلف الروايات الأجنبية التي عاصرت الطاعون في بداية القرن 19م في مجملها عن هذه التعريفات والأوصاف، يتضح ذلك من خلال نموذج دجاكسون Jackson James Grey في وصفه لهذا الطاعون الذي ضرب المغرب : "تبدأ أعراض الطاعون أحيانا برعشة مفاجئة قوية وأحيانا بهذيان مفاجئ يليه عطش قوي لا يرتوي ويتحول الماء البارد إلى ملاذ ويتلهف إليه المصابون بقوة وتهور، وقد أظهرت التجربة هلاك من استباح هذا الإسعاف اللحظي. كما تظهر دملة أواثنان أوثلاثة وهي الدمل التي تتشكل وتكبر خلال يوم لتصير في حجم الجوزة أوعين الجمل وآخرون تظهر بهم نفس العدد من الجمرات أوالفحمات والتي تتكون غالبا في المغبن وفي الإبط أوقرب الصدر. أما المصابون بالرعشة المفاجئة القوية فلا تظهر عليهم دمل أوفحمات أوبقع ولا أي تشوهات خارجية إلا أنهم يهلكون حتما في أقل من أربع وعشرين ساعة."[20]

وإذا كان التمييز بين الطاعون والكوليرا غير واضح في روايات إخباريي هذه الفترة، فإن التعريفات الطبية التي أوردوها اعتمادا على مشاهداتهم ووصف أعراض الوباء قد ساعدت على تجاوز هذا الغموض. ويتضح لنا ذلك من خلال النموذجين التاليين عن الكوليرا التي امتدت من سنة 1850 إلى سنة 1854، الأول للعربي المشرفي الذي دون في تقييد صغير من ورقتين مشاهداته بمنطقة بني يزناسن إبان هذا الوباء وأفادنا من خلاله عن التسميات المحلية التي كانت تطلق على الكوليرا : "دخل الوباء المسمى عند المغاربة ببواكوييبس وبعضهم يسمونه ببوازريويطة، وعند أهل تلمسان بواقْليب وبعضهم يُسمونه مرض النفطة وبعضهم يسمونه الريح الحمراء." ثم يذكر أعراض الإصابة بهذا الوباء : "...لأن الإنسان أكثر ما يطعن في جوفه، ومن حينه لا يحب زوال الماء من فيه، يشرب ويتقيأ إلى أن تخرج روحه وبعض الناس بمجرد الطعنة يسقط ميتا. وعلامة من مرض به برودة جسمه وغليان فؤاده دليله كثرة شربه"[21].

---

20 James Grey Jackson:, An account of The Empire of Morocco and the district of Suse, London, 1909, p. 273-274.

21 نص هذا التقييد يقع في صفحتين ضمن مجموع مخطوط، خ. ع. 204ك، ورقة 113.

وورد هذا الوصف الدقيق نفسه عند الناصري في مناسبتين، الأولى عند ذكر وباء كوليرا 1251هـ/ 1834م جاء فيه : "وفي هذه السنة[أي 1251هـ] كان الوباء بالمغرب بالإسهال والقيء وغور العينين وبرودة الأطراف"[22] أما الثانية فتخص وباء كوليرا 1271هـ/ 1854م : "وفي هذه السنة، أعني سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف، كان الوباء بالمغرب وهو إسهال مفرط يعتري الشخص ويصحبه وجع حاد في البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون، فإذا تمادى الشخص حتى جاوز أربع وعشرين ساعة فالغالب السلامة وإلا فهو الحتف"[23]. ونجد صدى هذه التعريفات التي تحيل إلى الكوليرا عند صاحب **الابتسام**[24] الذي يصفها باسمها المتعارف عليه عالميا بالريح الصفراء.

ورغم إقرارهم بظاهرة الاكتساح الواسع للأوبئة وأعداد الضحايا المتزايدة وتتبعهم لخطوات زحف الأوبئة من الظهور إلى الذروة فالتلاشي، نجد هؤلاء المؤلفين عند تناولهم لموضوع العدوى والمستجدات التي طرأت مع قوانين الحجر الصحي يتقوقعون في الغالب داخل قوالب نصية جاهزة[25].

3- إشكالية العدوى ومشروعية الوقاية :

لقد شكل موضوع العدوى، خصوصا في شقه الفقهي، أحد المحاور الأساسية التي لا يخلو منها أي من المؤلفات التي تطرقت لموضوع الوباء أوالطاعون. فأمام فداحة الخسائر البشرية والعجز عن مواجهة الداء والحد من فتكه وانتشاره[26]، وفي ظل جوالهلع والرعب يبحث الناس عن سبل النجاة وفي مقدمتها الفرار وإخلاء المناطق الموبوءة. إن هذا السلوك الذي ترك صداه الواسع لدى مؤلفي القرن التاسع عشر اعتُبر أحد الدوافع الأساسية لعدد من الفقهاء للكتابة في هذا

---

[22] الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج. 9، ص. 45.

[23] نفسه، ج. 9، ص. 69.

[24] الابتسام عن دولة ابن هشام لمؤلف مجهول. مخطوط. خ.ح. 12490ز، ص. 88.

[25] محمد الأمين البزاز، تاريخ المجاعات، م.س.، ص. 396.

[26] استنتج علي أومليل في الخطاب التاريخي ص. 88، أن الطاعون الجارف، أي الطاعون الأسود لسنة 1348م، إضافة إلى دخول البدوالعرب إلى المغرب منذ أواسط القرن الخامس الهجري هما الحدثان اللذان غيرا وجه المغرب في نظر ابن خلدون ودفعاه إلى تأليف كتابه الموسوعي العبر والمقدمة.

الموضوع، فتوزعت هذه الكتابات بين مناصر للفرار من أرض الوباء وبين مدافع عن لا مشروعية العدوى ومن ثمة لا مشروعية الفرار.

وقد خلف هذا الجدل كَمًّا هائلا من المؤلفات والتقاييد التي يغلب عليها طابع الفتوى والأحكام الشرعية حول ما يجوز وما لا يجوز للمسلم اتباعه خلال فترات الأوبئة. فعندما يُعلق الناصري على وصية المنصور الذهبي لابنه أبي فارس، في شأن أخذ الاحتياط من وباء الطاعون الذي كان منتشرا آنذاك أواخر القرن السادس عشر، فإنه يستنكر هذه الوصية التي تناقض في نظره مبدأ الإيمان بالقضاء والقدر. وبالتالي فإن موقفه من الكرنتينة -كإجراء صحي وقائي طارئ في القرن 19م- يدخل أيضا في هذا الإطار، إذ رغم ما تشتمل عليه في نظره من مصلحة تتجلى في سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء إلا أنه يُشكك في هذه المصلحة مستشهدا بعدم جدواها في كثير من الأحيان، مقابل ذلك فمفسدتها كبيرة في الإضرار بالتجار والمسافرين من جهة والتشويش على عقائد عوام المؤمنين في الإيمان بقضاء الله وقدره من جهة أخرى. ويعلل الناصري موقفه قائلا :

"فإن العامة لقصور أفهامهم قد تذهب أوهامهم مع هذه الظواهر فيقفون معها ويقعون في ورطة ضعف الإيمان.)...(وهويقتضي بظاهره أن الاحتراز عن الوباء واجب بأي وجه كان ولا يخفى أنه يتعين تقييده بالوجه الذي ليس فيه مفسدة شرعية كعدم القدوم على الأرض التي بها الوباء ونحوذلك مما وردت به السنة ولا تَأباه قواعِد الشريعة كبعض العلاجات المستعملة في إبّانه المنقولة عن أئمة الطب. أما بالوجه الذي يشتمل على مفسدة أومفاسد كهذه الكرنتينة فلا"[27].

والملاحظة نفسها بالنسبة لمحمد جنون الذي يشيد بدور العلاج الطبي في حفظ الصحة : "الغرض من الطب ليس دفع الموت بل الغرض إبقاء الصحة ودفع المرض مدة الحياة بقدر الإمكان، وهذه الحياة وإن كانت غير دائمة إلا أنها مع الصحة أولى منها مع الألم"[28]. إلا أنه عندما تعلق الأمر بالحسم في مسألة العدوى

[27] الناصري، الاستقصا ج. 5، ص. 183-185.

[28] محمد بن المدني جنون(ت. 1885م) كلام الأئمة على حديث لا عدوى ولا طيرة، مخطوط، خ. ع. ر. 640 د، ص.51 ب.

تَبَنّي الموقف المناصر لِعدم شَرْعية العدوى بناء على ما جاءت به أقوال السلف.

مقابل هذا الاعتقاد بالعدوى نجد مؤلفين آخرين يحاولون التوفيق بين النصوص الفقهية وواقع الأوبئة، لعل أوضح مثال على ذلك ما كتبه محمد بن يحيى السوسي معلقا على مسألة النهي عن الخروج من أرض الطاعون وعن الدخول إليها : "كلام الشرع مبني على الحذر والتسليم أوعلى مراعاة المصلحة العامة في النهي والموت به كالسموم"[29]، ثم يمرر موقفه الواضح من العدوى عندما يَنصح بجعل المصاب بالوباء في دار وَجهة منفردة عن الناس مع توفير كل ما يلزمه لقضاء حاجياته فيما على الممرض أن يكون في حجرة بعيدة في محل سالم من الروائح وحرارة الشمس[30].

وقد ساهمت محدودية التفسيرات الطبية وعجزها عن الإجابة عن التساؤلات المصاحبة للانتشار السريع للوباء في ترسيخ التأويلات الخاصة بنفي العدوى في الأذهان. ففي أوربا ظلت نظرية اللاعدوى -التي دافع عنها الأخباريون المغاربة في القرن 19- تفرض نفسها في الأوساط الطبية والحكومية بسبب انعدام الدليل التجريبي عن الجرثومة المعدية، وتوجهت بعض النظريات إلى تفسير الطابع الوبائي للأمراض المعدية على أساس الفقر والظروف المادية السيئة لبعض الفئات الاجتماعية، أوعلى أساس التفسيرات الهوائية التي ترجع السبب إلى الأوخام (أي الأبخرة الفاسدة). وكان لزاما انتظار حقائق علم الميكروبيلوجيا لكي تدفن نهائيا نظرية اللاعدوى مع نهاية القرن 19 واكتشاف جرثومة ييرسن Yersin التي تنتقل بواسطة البراغيث من الجرذان إلى الإنسان في حالة الطاعون الدملي، أومن الإنسان إلى الإنسان في حالة الطاعون الرئوي. أما بالنسبة للكوليرا فإن مبدأ اللاعدوى الذي ساد بشأنها بقوة في أوروبا في الربع الأول من القرن 19 كان مناورة ميركانتيلية الهدف منها منع الحجر الصحي بالكرنتينات وتجنب إتلاف السلع، وقاد الإنجليز هذه

[29] محمد بن يحيى السوسي، تأليف في الطب، م.س. ورقة 18 أ.
[30] نفسه، ورقة 21 أ و21 ب.

الفرضية باعتبارهم رواد التبادل الحر وتمسكوا بها حتى بعد اكتشافات باستور Pasteur والمعهد الدولي بجنيف سنة 1885[31].

أما في أوساط الفقهاء بالمغرب فقد استمر الجدل حول مشروعية الاحتراز من الطاعون والكوليرا طيلة القرن التاسع عشر، بل إن إشكالية جواز المداواة والاستشفاء في علاقتها بمفهوم القضاء والقدر ظلت حاضرة في الأذهان إلى فترة الحماية ؛ كما نستشف ذلك من خلال رسالة في "الداء والدواء" لصاحبها عبد الـــحفيظ الفاسي مؤرخة بسنة 1337هـــ/1918-1919م، "... فقد دلنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة على جواز الاستشفاء وبيَّنا أن سنته تعالى جارية لشفاء الأسقام بما أودع فيها سبحانه بحكمته البالغة من الخاصية وأن استعمال الأدوية لا ينافي التوكل وأنه صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر بالتداوي وهوأعظم المتوكلين"[32].

خاتـمة :

إذا كان التصور العام الذي وجَّه آراء إخباريي وفقهاء القرن التاسع عشر قد هيمنت عليه المعتقدات الفكرية التي تـــميل إلى التواكل والرضى بالقضاء والقدر، فإنه يعكس صورة عن البنية الفكرية السائدة في مغرب ذلك القرن وعن النخبة العالمة التي اضطلعت بدور حاسم في توجيه وتأطير آراء البلاد والعباد حول موضوع الوباء وما تفرع عنه من مستجدات كقوانين الحجر الصحي. هذه البنية الفكرية ساهمت بشكل كبير في الإهمال الذي ميز موقف المخزن من الجانب الصحي وعدم استحداثه لأي لجنة وطنية تناط بها مهمة الدفاع الصحي عن البلاد أمام توالي أوبئة فتاكة من طاعون وكوليرا أحدثت فيه خسائر كبيرة في الأرواح وهزت بعنف حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[33].

31 F. Arnoulet : Epidémiologie du bassin méditerranéen au XVIIIeme et XIXeme siècle, In Revue des études maghrébines, n°17-18, 1998, p.16-17.

32 عبد الحفيظ الفاسي، الداء والدواء أوخطرات مريض، ضمن كتاب زهر الشماريخ في علم التاريخ لعبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، طبعة حجرية 1338هـ، ص.2.

33 محمد الأمين البزاز، المجلس الصحي الدولي 1792- 1929، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 2000، ص. 13.